

نظرة الرحالة العرب إلى الغرب  
في القرن التاسع عشر

إعداد  
د. عاصم جاد الله أبو جبلة  
جامعة مؤتة - قسم التاريخ  
الأردن

obseikan.com

## نظرة الرحالة العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر

### النظرة إلى نظام الحكم :

إن رحلة العرب إلى أوروبا في القرن التاسع عشر ، كانت للتعلم أو العلاج ، أو لعقد الاتفاقيات التجارية ، أو للقيام بالمهام الرسمية التي كلفتهم بها دولهم ، أو للإقامة كممثلين دبلوماسيين<sup>(١)</sup> . وكان أول هؤلاء الرحالة الذين رحلوا إلى أوروبا وبخاصة إلى فرنسا رفاعه الطهطاوى من مصر الذى ذهب فى رحلة (بعثة تعليمية) إلى باريس عام ١٨٢٦ م .

ولقد لفت انتباهه كما لفت انتباه وإعجاب غيره من رحالة القرن التاسع عشر «نظام الحكم فى أوروبا» فلاحظ رفاعه الطهطاوى أن الحكم هناك للقانون ، وأن الدستور هو سيد الجميع ، وهو الذى ينظم علاقة الدولة بالمواطنين ، والمواطنين بعضهم ببعض ، وحول هذا الموضوع قال الطهطاوى :

---

(١) أبو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربى ، العدد ٦٩ ،  
آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظر فهيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون  
والآداب ، الكويت / ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .

« إن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وإن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد، بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين .. والكتاب المذكور الذي فيه هذا القانون يسمى الشرطة (المشروطة) ومعناها في اللغة اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله وليس في سنة رسوله ﷺ ؛ لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقاد الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيه من يشكو ظلماً أبداً والعدل أساس العمران »<sup>(١)</sup> .

وفسر الطهطاوى المادة الأولى من القانون الفرنسى ، والتي تنص على أن « سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة » فقال : معناه: أن سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون حتى إن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه العظيم نظراً إلى إجراء الأحكام ، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحاضرة .

ويضيف الطهطاوى : « وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف ، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى في الأحكام والقوانين بحيث لا يجوز الحاكم على إنسان ، بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة فهذه البلاد حرية » .

(١) الطهطاوى ، رفاة ، تخلص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ،

وأوضح الطهطاوى كذلك ، أن « الفرنساوية مستوون في الأحكام على اختلافهم في العظم والمنصب والشرف والعناء ، وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية » .

ومع ذلك فإن رفاة رافع الطهطاوى وعلى الرغم من إعجابه بالعدل والحرية والإنصاف في بلاد باريس إلا أنه يعتبر أنه « إذا وجد العدل في قطر من الأقطار فهو نسبي إضافي لا عدل كلي حقيقي ، فإنه لا وجود له الآن في بلدة من البلدان فإنه كالإيمان الكامل والحلال الصرف »<sup>(١)</sup> .

وهناك أحمد فارس الشدياق في كتابه « كشف المخبا عن فنون أوروبا » الذى زار بلاد الإنجليز ووصف حرية الناس هناك مقارنة مع البلاد العربية إذ قال : « ومن العجيب أن الإنجليز قد يبلغ أحدهم السبعين ولا يحظه الشيب لا في رأسه ولا في عارضه .. والظاهر أن أعظم أسباب الشيب هو الهم والإصر والخوف من ظلم الولاة وذوى السيادة كما هو في بلادنا وكذا في كل بلاد يقل فيها الأمن والسلامة فإن أحد الإنجليز إذا كان يملك مثلا مليون ليرة لم يخش من ملكه أو من أمير أن ينفاسا عليه بذلك، بل يعتقد أن غناه أو غنى أمثاله موجب لغنى دولته فيتباهى به ما شاء ولا يخشى أن يتناول عليه في حقوقه أحد ممن هو أعلى منه ، فإن الجميع في الحقوق متساوون »<sup>(٢)</sup> .

ويرجع خير الدين التونسي في كتابه « أقوم المسالك » أساس التقدم الأوروبى إلى أن « أساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن المتولد منه الأمل ، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأورباوية بالعيان وليس بعده بيان »<sup>(٣)</sup> ، هذا فضلا

(١) الطهطاوى ، رفاة ، تخلص الإبريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

(٢) الشدياق ، أحمد فارس ، كشف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣هـ ، ص ١٠٧ .

(٣) التونسي ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بمحاضرة تونس المحمية ، ١٢٨٤هـ ، ص ٥ .

عن أن تقدم الإفرنج في المعارف نتج عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية»<sup>(١)</sup>، ويقول كذلك: « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي »<sup>(٢)</sup>.

وجعل خير الدين التونسي الحرية « منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأورباوية » وقال: « إن لفظ الحرية يطلق في عرفهم بإزاء معنيين أحدهما يسمى الحرية الشخصية: وهو إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه مع أمنه على نفسه، وعرضه، وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث إن الإنسان لا يخشى هضمه في ذاته ولا في سائر حقوقه، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المستقرة لدى المجالس. وبالجملة، فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية، والحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأورباوية إلا في الدولة الباباوية والدولة المسكوبية لأنهما مستبدتان وهما وإن كانتا ذواتي أحكام مقرررة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة لأن نفوذها موقوف على إرادة الملك ..

والمعنى الثاني: الحرية السياسية وهي تطلب من الرعايا التداخل في السياسات الملكية والمباحثة فيه هو الأصلح للمملكة .. ولما كان إعطاء الحرية لسائر الأهالي مظنة لتشيتت الآراء وحصول المخرج عدل عنه إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المروءة والمعرفة تسمى عند الأورباويين بمجلس نواب العامة .. كما أشار خير الدين التونسي إلى حرية التعبير في طرح الآراء فقال: « وبقي وراء ذلك للعامة شيء آخر يسمى حرية المطبعة (الكتابة) وهو أن لا يُمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامة أو يعرض ذلك على الدولة والمجالس ولو تضمن الاعتراض على سيرتها »<sup>(٣)</sup>.

(١) التونسي، خير الدين، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة بمحاضرة تونس الحمية،

١٢٨٤هـ، ص ٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٤ - ٧٥.

ويرى خير الدين التونسي « أن البلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران هي التي تأسست بما عروق الحرية والكونستيتوشيون المرادف للتنظيمات السياسية فاجتنب أهلها ثمارها بصرف المهم إلى مصالح دنياهم ، ومن ثمرات الحرية تمام القدرة على الإدارة المتجربة فإن الناس إذا فقدوا الأمان على أموالهم يضطرون إلى إخفائها فتعذر عليهم تحريكها وبالجملة ، فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى ويستولى على أهلها الفقر والغلاء ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة »<sup>(١)</sup> .

وأوضح خير الدين التونسي أسباب اتخاذ الممالك الأوروبية للقوانين والأنظمة التي تحكم سلوك الراعي والرعية إذ قال : « اعلم أن الأمم الأوروبية لما ثبت عندهم بالتجارب إطلاق أيدي الملوك ورجال دولهم بالتصرف في سياسة المملكة دون قيد مجلبة للظلم الناشئ عنه خراب الممالك حسبما تحققوا ذلك بالاطلاع على أسباب التقدم والتأخر في الأمم الماضية جزموا بلزوم مشاركة أهل الحل والعقد مع جعل المسؤولية في إدارة المملكة على الوزراء المباشرين وبلزوم تأسيس القوانين المتنوعة عندهم إلى نوعين : أحدهما : قوانين الحقوق المرعية بين الدولة والرعية والثاني : قوانين حقوق الأهالي فيما بينهم »<sup>(٢)</sup> .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسي هذا الموضوع كذلك فقال : « وأن تكون الإدارة على قانون معلوم موافق لعادات الأمة وما يقتضيها حالها ، وأن يستوى الشريف والمشروف في الحقوق الشخصية ، وأن لا يمتاز قسم من الناس بالأشياء الضرورية كالعلوم والأراضى والتجارة وغيرها ... وقال : « فسارعوا (ملوك أوروبا) إلى منح الأهالي بالقوانين والحرية منة منهم وما حصل في إحدى الممالك من إجراء القوانين على أى وجه من الوجوه المتقدمة إلا أخذت في الترقى والثروة لانكشاف الظلم المؤذن بالخراب فتحسنت أحوالها وعمرت أرضها وكثرت صنائعها وانتشرت فيها المعارف وزادت إقتاننا واختراعنا ، وامتدت تلك المملكة بسطوتها على من

(١) التونسي ، خير الدين ، أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة بمحاضرة تونس الحميمة،

١٢٨٤هـ ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٢ .

لم يجارها فيما هي عليه ، وسرى العمل على ذلك النحو في جميع ممالك أوروبا .. بحيث يصح أن يقال إن جميع أوروبا كأنها مملكة واحدة على نمط واحد وغاية الاختلاف بينها إنما هو بزيادة الثروة والقوة والحضارة . أما أصول هذه الأشياء فهي موجودة في الجميع»<sup>(١)</sup> .

كما تناول محمد بيرم التونسي الحياة السياسية في أوروبا بالتفصيل فقال : «وخلاصة الكلام على جميع قسم أوروبا هو أن يقال: إن جميع الممالك - إلا ما استثنى - كلها ممالك قانونية يعنى أن إدارتها منضبطة في السياسات بأمر محدودة مكتوبة يعلمها الخاص والعام ولا يجوز للمتصرف تجاوزها، والمباشر لإجرائها هم الوزراء بإذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من إمبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية، وعدد هؤلاء الوزراء يختلف بحسب كبر الممالك وصغرها ، ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما: مجلس الأعيان من الأمة واختيار أعضائه بيد صاحب المملكة أو بواسطة وراثية تتوارثها بعض العائلات وقد تنتخب الأهالي بعض الأعضاء من بعض المملكة . والثاني : مجلس النواب أى نواب الأمة ينتخبهم الأهالي لمدة معلومة بغاية الحرية في الاختيار على شروط في المنتخب والمنتخب تؤول إلى صفات تثبت حق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والأهلية لنصحه ، وبمجموع المجلسين يصح أن يسمى مجلس الأمة أو المملكة ، فإذا رأى هذا المجلس فسادا في تصرف أحد الوزراء أو مجموعهم وأصر المعارض على رأيه لزمه الاستعفاء لأنه يتصرف على خلاف إرادة الأمة . وهنا يكون لصاحب المملكة الحق في قبول اعتراض المجلس وإبدال المعارض عليه ، أو يأذن الأمة بانتخاب مجلس آخر بعد حله للأول ، فإن وقع انتخاب الأمة على إناس موافقين للمعارض عليه بقى الأمر على ما هو عليه ، وإن انتخبوا أهل المجلس الأول أنفسهم أو غيرهم ممن يوافقهم في الرأي لم يبق لصاحب المملكة حينئذ إلا إبدال الوزراء المعارض عليهم وتوظيف غيرهم ممن يوافق رأى الأمة هذا زيادة عما لهذا المجلس من حفظ القوانين ومراعاة مصالح المملكة في المال والسياسة والأحكام

(١) بيرم التونسي ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمسئودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج في ١ ، القاهرة ،

وعقاب المذنبين من المتوظفين ولو من الوزراء ، غير أن مباشرة العمل ليست بيده وإنما هي لمن تعود إليه من وزير أو مجلس حكم أو صاحب المملكة فهذا هو أصل إدارتهم السياسية»<sup>(١)</sup> .

أما أحمد زكى في كتابه السفر إلى المؤتمر ١٨٩٣ فقد وصف طريقة حرية التعبير في (لورنדה : لندن) إذ قال عن مواطنيها : إن كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف في أى مكان ، ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أو لا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مباليين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على إحراق دور الأغنياء وسلب المخازن الكبيرة ، وما أشبه ذلك فإن حرية المقال في هذه البلاد وصلت إلى ما هو فوق منتهاها»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب في القرن التاسع عشر قد اهتموا اهتماما بالغا بتفاصيل الحياة السياسية في أوروبا من حيث الانتخاب الحر لممثلي الشعوب ، وسيادة القانون ، والعدل ، والحرية ببعديها : السياسى ، والشخصى ، وتأكيدهم الواضح على أن سر التقدم الأوروبي هو ما يتيح العدل السياسى لتلك الشعوب من مرونة تساعدهم في الرقى والتقدم في الصناعات والفنون .

### النظرة إلى التقدم :

من أوائل الرحالة العرب الذين تناولوا هذا الموضوع ولاحظوه في أوروبا ودونوا ملاحظاتهم حوله ، وبصورة تفصيلية ، رفاعة رافع الطهطاوى ، في كتابه « تخلص الإبريز » إثر رحلته إلى باريس منذ عام ١٨٢٦ م . فلقد آمن رفاعة بالحقائق العلمية وبأنها أساس التقدم الحضارى والسعادة الدنيوية<sup>(٣)</sup> . وكان المثل الأعلى في رأيه أن

(١) بريم التونسي ، محمد الخامس ، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ ج في ١ ، القاهرة ،

١٣١١هـ ، ج ١ ، ص ٥٨ .

(٢) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ط ١ ، ١٣١١هـ ، ص ١١٢ .

(٣) سبابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ،

ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٧ .

يأخذ المسلم العلوم الأوروبية ليطور دنياه وأن يحتفظ بإسلامه الذى يهديه إلى الطريق المستقيم والنجاة<sup>(١)</sup> .

وصف رفاة الطهطاوى التقدم فى باريز ، مبينا أسباب ذلك وأن الأصل فى ذلك تطور الناس أنفسهم إذ قال : « اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصرارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات ... وليسوا أسراء التقليد أصلا بل يحبون دائما معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل إنسان على قدر حاله فليست العوام بهذه البلاد من قبيل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبريرة ، وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى إن الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يتدع فى فنه شيئا لم يسبق به أو يكمل ما ابتدعه غيره<sup>(٢)</sup> .

وأضاف رفاة قوله : والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لا ينكر إنسان أنما تجلب الأنس وتزين العمران ، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا والنادر أولى فى العمارات عادة من القرى ومن الضياع والمدن العظمى أولى من سائر ما عداها من مدن المملكة . فحينئذ لا عجب إن قيل إن باريز التى هى قاعدة ملك الفرنسيين من أعظم بلاد الإفرنج بناء وعمارة<sup>(٣)</sup> .

ولفت نظر الطهطاوى فى باريز طرقاتها المبلطة بالحجر التى لا تتشرب المياه ، بل تسير مياهها إلى المجارى ثم إلى البالوعات<sup>(٤)</sup> . وذكر أن مطايا هذه المدينة كغيرها من

(١) سابا يارد ، نازك ، الرحالون العرب وحضارة الغرب فى النهضة العربية الحديثة ، مؤسسة نوفل ،

ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٩ .

(٢) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٦٥ - ٦٦ .

بلاد فرنسا العربات ، إلا أنه يكثر فيها ذلك ويتنوع ولا تزال تسمع بما قرقة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع<sup>(١)</sup> .

ويذكر الطهطاوى أن الذى « يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر (عصره) بمدينة باريس ، أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الفرنج من يضاهاى حكماء باريس بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر »<sup>(٢)</sup> .

وأشار إلى تقدم الزراعة فيها بالإضافة للفنون والعلوم والصنائع فقال : وما من بيت من البيوت الوافرة إلا وبه بستان عظيم الأشجار والخضروات وغيرها ، وأغلب النباتات الغريبة توجد بهذه البلدة فإنهم يعتنون بتطبيع النباتات كالحوانات الغريبة ببلادهم مثل شجر النخيل<sup>(٣)</sup> .

وأعطى الطهطاوى وصفا تاما لعمل البريد والتقدم فى خدمة المواطنين الباريسيين فى هذا المجال فقط : « وأما البريد المسمى عند الفرنسيين البُسطة فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها يسهل فيه أخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا ويأتى ردها فى أسرع ما يكون وتديرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم ما يمكن ، فإن المكاتيب التى تبعث فى البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك لأن سائر نمرة البيوت مكتوب عليها بالرقم عدده المسمى نمرة فيها يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه لإنسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوعة فى كل حارة فيأتى الساعى ويأخذه فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ويأتى رده فى يومه ، ثم إن الفرنسيين يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء »<sup>(٤)</sup> .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٧٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨١ .

ومما لفت نظر الطهطاوى من مظاهر التقدم استخدام وسائل الإعلام بمفهومنا الحديث للترويج عن سلعة من السلع أو لأعمال تجارية بصورة عامة . فيذكر أن «من الأمور النافعة في التجارات الجرنالات ، فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ويمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا نظير ذلك»<sup>(١)</sup> .

ويشير الطهطاوى إلى أن من أسباب رغد عيش وتقدم باريس في فنونها وصنائعها يرجع إلى أن أهل باريس يمتازون بالنشاط الدائم وعدم التكاسل وقال : « اعلم أن المركز في أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب والشغف به وصرف الهمة إليه بالكلية ومدح الهمة والحركة وذم الكسل والتواني ، حتى إن كلمة التويخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الذم هي لفظة الكسل والتنبلة » . كما لفت انتباهه وجود نظام الصيرفة الذى يسهل الأعمال التجارية ، وذلك بقوله : « ثم إن أعظم التجارات وأشهرها في باريس معاملات الصيارفة ، والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو الميرى وصيارفة باريس»<sup>(٢)</sup> .

وينتقد الطهطاوى كسب أهل باريس بأنه قائم على الربا وهنا يقول : « ولولا أن كسبهم مشوب في الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا»<sup>(٣)</sup> .

وذكر الطهطاوى أن « من جملة أسباب غناء فرنساوية ، أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف حتى إنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف»<sup>(٤)</sup> .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

وفي عام ١٨٦٠ قام أبو جمال محمد الطاهر الفاسي المغربي برحلة إلى الديار الإنجليزية فزار لندن ووصف التقدم فيها عن أهلها : « والحاصل أنهم أتعبوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظرية ، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات ، ولالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة ، كما أحدثوا الباور وغيره»<sup>(١)</sup>.

ووصف الفاسي مدينة (لندريز) فقال : « وهذه المدينة من المدائن العظام ما رأيت أعظم منها ولا أحظى حتى تكرر على أسماعنا أن طولها ستة أيام ، وعرضها كذلك ، وبها سلطنة الإنجليزي ، وغالب بنائها بالحجر المنحوت ويطنون الحيطان من داخل بالخشب ويجعلون عليه كاغيدا - مموها ، ويفرشون الأرض ببسط وزرابي جيدة .. » كما أعطى وصفا عاما للعمران بقوله « والديار بهذه المدينة كلها متشابهة إلا ما قل وتميز بالأعداد على أبوابها .. والعادة أنهم لا يحمون البساتين بالحيطان ، وإنما يحدقونها بقصب من حديد واقف ، وبرأسه شيء شبيه بالحربة »<sup>(٢)</sup>.

ويرى الفاسي أن كل شيء في بلاد الإنجليز عجيب فيقول شعرا :

الله أخطر مدتي فتأخرت حتى رأيت في ذا البلاد عجائبا<sup>(٣)</sup>

ومن الأشياء والصناعات التي وصفها في كتاب رحلته وصفه لـ : الفبارك (المصانع) مصانع السلاح ، وفيركة معدة لنشر الخشب ، والأساليب الحديثة عندهم في الزراعة ، ثم حديثه عن البنك : « وهو معدود من دار السكة عندهم » ، كما وصف دار صنعة الزجاج من كؤوس وغيرها ، كما وصف حسب تعبيره « محل السلك » (التلغراف) المعد لورود الأخبار وتوجيهها<sup>(٤)</sup>.

(١) الفاسي ، أبو الجمال محمد الطاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ،

١٩٦٧ ، ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٨ - ٣٦ .

كما وصف التقدم العسكري ، خصوصا الصناعة العسكرية من حيث « أسلحة البنادق ، والمدافع والعربات »<sup>(١)</sup> .

ويوضح اندهاشه بهذا التقدم بقوله : « والحاصل أنهم - دمرهم الله - يستعملون أشياء تدهش سيما من رآها ربما اختل مزاجه من أجل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، كيف تحيلوا على إصلاح دنياهم حتى أدركوا منها مناهم ، واستعملوا لذلك قوانين وضوابط وفي كل ما يقرهم منها غوابط »<sup>(٢)</sup> .

وهكذا فإنه قد اهتم بصورة خاصة بمظاهر المدنية الحديثة في لندن وأبدى استغرابه من الأشياء التي رآها لأنها كانت بعيدة كل البعد عن مألوفه ، ولكنه يتفهمها ويصفها بكل وضوح ودقة مثلما وصف ميزان الطقس (بارومتر) والتنبؤ بالطقس بناء على ذلك .

ولكن الفاسي يفسر تقدم الإنجليز استنادا إلى استخدامهم العقل وبعدهم عن الإيمان فقال : « العقل على قسمين : ظلماني ونوراني ، فالظلماني به يدركون هذه الأشياء الظلمانية ، ويزيدهم ذلك توغلا في كفرهم ، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية كالإيمان بالله وملائكته ورسله وكل ما يقرب من رضى الله ، ومن هذا الباب وصفهم الله في غير ما آية بعدم العقل وبعدم التفكير وبعدم الفقه »<sup>(٣)</sup> .

وهو يقف من الإنجليز وقوقم العسكرية موقفا واضحا فلم يكن مسرورا لقوقم وتدريبهم الذى رأى فيه تميزا عن الجيش في بلاد المغرب ، فبعد أن وصف عسكر المدينة (لندن) الذى أحدث أيام الملكة فكتوريا ومشاهدته للاستعراض الذى قاموا به أمام الملكة ، وقال : والله يهلك القوم الكافرين ، وينصرنا عليهم ، آمين .

(١) الفاسي ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ،

١٩٦٧ ، ص ٢٥ - ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .

وقال : «هذا العسكر أباده الله»<sup>(١)</sup> وفي مقام آخر قال الفاسي : «اللهم احص القوم الكافرين عددا وشتتهم بددا ولا تبق منهم أحدا ، آمين»<sup>(٢)</sup> .

وقال : « قال بعض العلماء : إن النصرى حرموا جنة الأخرى ، فأعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالأندلس إلى خليج قسطنطينة »<sup>(٣)</sup> .

ولقد أعجب أحمد فارس الشدياق بما رآه من تقدم في أوروبا ، من حيث التمدن والبراعة والتفنن والتفكر في المصالح المدنية والأسباب المعاشية وانتشار المعارف العمومية وإتقان الصنائع وتعميم الفوائد والمنافع ، وهو يقول: إنه دائم التفكير في خلو بلادنا عما عندهم من تقدم<sup>(٤)</sup> .

ورأى الشدياق أن من أسباب التقدم في أوروبا أنه « إذا نبغ أحدهم مثلا في فن أو صنعة لم يجد من يتصدى لتجهيله ، وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطنفى جذوة قريحته، بل بالحرى يجد من ينشطه ويسر له أسباب العلم ، فأما في بلادنا ما ينبغ أحد في شيء يبادره حاسدوه بقولهم : « هو مُدَّع ، هو حمار ، هو متطفل »<sup>(٥)</sup> .

ووصف خير الدين التونسي ، التقدم والتمدن في أوروبا بقوله : « وإنما بلغوا تلك الغايات والتقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسى، وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة »<sup>(٦)</sup> وأضاف أن هذا التقدم لم يحصل إلا بتعاطى المعارف وأنواع الصناعات الراجعة إلى الأصول

(١) الفاسي ، أبو الجمال محمد الظاهر ، الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ، (١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م) تحقيق الأستاذ محمد الفاسي رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٤) الشدياق ، أحمد فارس ، الوساطة في معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط ١ ، دار الوحدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٣ ، وكشف المخبا ، ص ٣ .

(٥) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٤٩ .

(٦) التونسي ، أقوم المسالك ، ص ٩ .

الأربعة : الفلاحة والتجارة والأعمال البدنية والفكرية ، وبهذه الأصول قوام السعادة الدنيوية المرغوبة للهمة الإنسانية وكمال الحرية المؤسسة على العدل وحسن النظام ونظام الجماعة حتى يكون المحترف مثلاً آمناً من اغتصاب شيء من نتائج حرفته أو تعطيله في بعض أحوال خدمته . ولا شك أن العدوان على الأموال يقطع الآمال، ويقدر انقطاع الآمال تنقطع الأعمال إلى أن يعم الاختلال المفضى إلى الاضمحلال»<sup>(١)</sup> .

وذكر خير الدين التونسي أن من أسباب التقدم « تسهيل المواصلة بالطرق الحديدية ، وتعاضد الجمعيات المتجرية والإقبال على تعلم الحرف والصنائع ، فبالطرق تُستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها .. وبالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتي الأرباح على قدرها ، وتتداول على المال الأيدي المحسنة لتنميته ، ويتعلم الحرف تكتسب الأموال الذريعة عن غير رأس مال»<sup>(٢)</sup> . ويشير خير الدين التونسي إلى أن من أسباب تقدمهم كذلك « العناية بمن اخترع شيئاً لم يسبق إليه أو أجاد في عمل مفيد»<sup>(٣)</sup> .

وتناول محمد بيرم الخامس التونسي في كتاب « صفوة الاعتبار » موضوع التقدم، أو كما يسميه ( التمدن ) في أوروبا ، فقال : « وهاته القارة الآن رمقها السعد بالحال .. فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقاً ، وامتد فيها تدريجياً إلى أن بلغت في هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية حتى صار لأهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الأرض»<sup>(٤)</sup> .

ووصف محمد بيرم تقدم الصنائع في إيطاليا في العقد السابع من القرن التاسع عشر فقال : « وأما بقية الصنائع فلهم كفاية في كل الصنائع الضرورية والتحسينية ، لكنهم ليس لهم معامل كثيرة التي هي من أعظم أسباب الثروة والترقي ، وإن كانوا لازالوا

(١) التونسي ، أقوم المسالك ، ص ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٦ - ٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(٤) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ١ ، ص ٤١ .

مجتهدين في ترقياها إلى بلوغها لمثل درجة الأمم البالغة للنهية في المعارف ، والتمدن ، والحاصلون عليه الآن هو أن لهم معامل للسلاح بأنواعه ومعامل لإنشاء السفن والبواخر المدرعة . ومعامل للتحليلات الكيماوية وللأعطار وللشمع المتخذ من الشحم لدباغة الجلود ، ولصناعة الورق ، وغزل القطن ، ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ، ومنه النوع الفاخر المسمى بالأمرير أو القطيفة ، ومعامل للطراز ، كما أنه يصنع بالأيدى أيضا ، ولهم معامل للزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة ، وآلات الموسيقى وخصوصا أوتار بلدنا بل لها صيت كبير في جميع الجهات ، وفي نابلي وميلانو معامل متقنة للكراريس أى عجلات الركوب ، كما أن في إيطاليا إتقانا لصناعة الأحذية وسائر الأنعلة وخياطة الملابس وهم فائقون في صناعة تحت المرمر ونفسه ، وكذلك صناعة المرجان والصياغة والكهربان»<sup>(١)</sup> .

وأعطى محمد بيرم وصفا شاملا للطرق المرصوفة في إيطاليا وأكد على اهتمام بلدانها بالنظافة والتنوير واتساع الطرقات ، وحول الطرق المرصوفة قال : « اعلم أن إيطاليا تكاد أن لا تجد بين بلدين فيها طريقا غير صناعية بل كلها متصلة ببعضها بالطرق المحصبة المتقنة الصناعية غير أن الطرق في البرية لا تنظف ، وأن لها قيمين لإصلاح ما يفسد منها كأن يكون على كل ثلاثة أميال قيم له مركز يأوى إليه وفيه من آلات الإصلاح ما فيه الكفاية » أما النظافة في بلدان إيطاليا : فقال : « ولا تجد مزبلة في البلد لأن خدمة التنظيف يرفعون الأزبال الملقاة من الدور في آخر الليل ومن طرح الأوساخ من داره في غير الأوقات المعينة عوقب على ذلك بالعقوبة المالية بحيث نجد سائر الطرق نظيفة ، وفي الليل منورة بالبخار الغازي والفوانيس نظيفة ... ويضيف : وغاية ما هناك هو الفرق بين البلدان في شدة النظافة ، والتنوير واتساع الطرقات فقط »<sup>(٢)</sup> .

(١) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ولفت نظر محمد بيرم ما تأخذه الدولة من السكان في إيطاليا كضرائب وما يترتب على ذلك من تقدم وتحسين البلد ، فقال : « كما أن من الأحوال المتفق عليها أن يكون قسم مما تدفعه الأهالي إلى دولتهم يصرّف في تحسين المملكة ورونقها وإصلاحها كمد الجسور والطرق الحديدية وتنظيف الطرق زيادة على إنشائها ، وكذلك يؤول لتوسيع التجارة والمعارف والفلاحة وغير ذلك مما يعود على المملكة بالتحسين والتحصين »<sup>(١)</sup> .

وفي حوالي عام ١٨٨٩ ، زار أوروبا محمود عمر الباجورى ( من مصر ) ، ابتداء رحلته بإيطاليا ، ثم فرنسا ، ثم إنجلترا ، ثم استوكهولم ، وألمانيا ، ثم العودة إلى مصر . وفي رحلته الشاملة هذه لأهم بلدان أوروبا آنذاك وصف التقدم والحياة وصفا شاملا ، حتى إنه كان كثيرا ما يعطى جداول بالأرقام حول بعض مظاهر التقدم في تلك البلدان . ووصف مدينة تريسته في إيطاليا فقال : « وفيها مدارس عديدة للملاحة والتجارة وغيرها ، وكتبخانة وانتفخانة ... وفيها التياترو ، والبورصة ، ومحل إنشاء السفن والمستشفى ، والقناة الجالبة لمياه الشرب والأرصفة التي على البحر ، كل ذلك في غاية الحسن والمتانة »<sup>(٢)</sup> .

وعند حديث الباجورى عن (سراى ميرمار) في مدينة تريسته ، قال : « والحيطان في غاية الإتقان مع جمال النقش وحسن الشكل بما حوى من الرسم العجيب والوضع البديع والألوان الجميلة التي تأخذ بالأبصار » كما أعجب بمديقة السراى هذا أيما إعجاب فقال : « وبالجمله ، فهي حديقه لم يسمح الدهر بمثلها »<sup>(٣)</sup> .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن مدينة ميلانو فوصف تقدم صناعاتها ، وبخاصة الحرير ويذكر أن فيها « نور الغاز والنور الكهربائى ، حتى إن محطة سكة الحديد على اتساعها وارتفاع قبتها منورة بفانوس واحد كهربائى ، بحيث يتمكن الإنسان من القراءة على نوره فى الخط الرفيع »<sup>(٤)</sup> .

(١) بيرم التونسى ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

(٢) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١١ - ١٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٣ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

والتفت الباجورى إلى المسارح (المراعى) « وترتيب الغيطان » فى مدينة فينيسيا ، وأرجع التقدم فى هذا المجال إلى انتشار الأمن هناك فقال : « كنا نرى فى طريقنا هذا البقر والغنم والمعز والخيل والجاموس الأسود الذى لا يوجد إلا فى بلاد إيطاليا دون غيرها من أوروبا فى المسارح بدون من يحفظها وذلك لعموم الأمن عندهم ، إنما يجعل الإنسان على حدود غيطه حاجزا من الخشب أو الأشجار الصغيرة المشتبكة بالصناعة يمنع خروج الدواب منها ، فعند الصباح يأتى بما صاحبها إلى ذلك الغيط ويقفل عليها بابه ، ويتركها ترعى ، ويذهب لشغل آخر ، ثم يعود إليها آخر النهار ليأخذها إلى بيته »<sup>(١)</sup> .

وقد تعجب من طرق سكة الحديد النافذة عبر الأنفاق فى الجبال فى أوربا<sup>(٢)</sup> . فقال : « حين يمر بك الوابور فى سرداب تحت صخور الجبال التى لا يمسكها إلا الله تعالى فى ظلام حالك لولا ما فى الوابور من النور ماذا يكون حالك وإلى أى شىء تتجه أفكارك ، نعم ذلك شىء يحير الألباب ويدهش العقول ويطير النوم من العيون ، ولا ينفع إذ ذاك إلا التسليم لقضاء الملك الحكيم فهو كما يقال داخله مفقود وخارجه مولود ، فهناك لا تسمع إلا دويا هائلا وفرقة مزعجة ، من سرعة الوابور ، مع طبقات الهواء المخزون فسبحان المنجى من المهالك التى هى أمثال ذلك »<sup>(٣)</sup> .

وعندما تحدث الباجورى عن مدينة لوسرن السويسرية أعجب بالبيوت الريفية المقامة على بعض الأنهار هناك ، ويصفها « بالبيوت الخلوية »<sup>(٤)</sup> .

ثم انتقل الباجورى إلى الحديث عن باريس التى كان قد وصلها فى أول آب ١٨٨٩ ، فذكر ساحاتها وكنائسها ، ومستشفياتها ومدارسها ، وأفاض فى الحديث عن مكتبتها وموجوداتها من الكتب ، فيذكر أنها تشمل على ٩٠٠ ألف مجلد طبع ، و ٨٠ ألف مجلد خط آنذاك ، ويطلق عليها اسم « الكتبخانة »<sup>(٥)</sup> .

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية فى الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥ .

وقال عن باريس : « باريز هي أول مدن فرنسا تمدنا وتجارة وعلمنا وصناعة لاسيما الأشياء التي تلزم للنساء والأطفال » ... كما عقد فصلا عن « الانتظام والترتيب في محلات التجارة » في باريس . وقال : « وكل شيء قد يكتب عليه ثمنه فلا يحتاج إلى نزاع في المساومة ، وهكذا في كل محل مشهور يكون بهذه الصفة المستحسنة ، وكل بضاعة يشتريها الإنسان يمكن توصيلها إلى محله بواسطة عربات محل التجارة المعدة لذلك بدون مقابل ، غير أنه يلزم الإنسان أن يكتب على بضاعته اسمه ونمرة محله ويتركها لهم ، فانظر إلى هذا الاستعداد الغريب والترتيب العجيب والانتظام الكامل ، وفي هذه زيادة عن الترتيب الأمانة بحيث إن أهلها لا يكونون محترسين من الناس الأجانب ، مع كثرتهم ، وقوة ازدحامهم مع بعضهم البعض والتصاقهم بالبضائع »<sup>(١)</sup> .

وقد أعجب الباجورى ببناء كتيبخانة باريس وبوابتها التي تعجب من صنعها كذلك فقال : « أما بناء الكتيبخانة ففي غاية الصلابة والمتانة والانتظام وحسن الوضع ، وأبوابها من الداخل في غاية الغرابة بحيث إن الإنسان إذا فتح الباب وتركه ينغلق وحده بقوة في أول الأمر إلى أن يقرب من تمام الغلق يرجع القهقري قليلا ، ثم ينغلق بكل هدوء وسكون وذلك بواسطة مكنة في أعلاه جعلت لذلك فإنه لو ترك الباب ينغلق بدون الآلة المذكورة لحصل للبناء أضرار كثيرة مع طول الزمن من قوة الباب وعظم جرمه ، فسبحان الهادى المدير الحكيم »<sup>(٢)</sup> .

وذكر الباجورى بعض مظاهر التقدم الأخرى في باريس مثل « اللوكاندات » وما تشتمل عليه من حسن التنظيم ، والترتيب والنظافة<sup>(٣)</sup> ، وكذلك الوابور الكهربائي ومركز التلفون ، الذى وصفه بأنه « يخدم أربعة آلاف فرع لمدينة باريز والحال أن المتولى لتوصيل هذه الفروع أربع نساء ، فتكون كل واحدة توصل ألف فرع ، فانظر إلى تلك المهارة والإتقان والتقدم ، وكنا نراهم حال تأدية العمل في غاية

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ - ٣٥ .

الهدوء والسكينة مع نشاط تام ، فجل من خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم»<sup>(١)</sup> .  
كما تكلم عن الآلات الميكانيكية بشئ أنواعها وأغراضها<sup>(٢)</sup> .

ويرجع الباجورى سبب هذا التقدم عند أهل باريس إلى أن : « أوقاتهم مرتبة في العمل للمعاش وفي الأكل والشرب والتزه والاستراحة والنوم ، تراهم لا يضيعون أوقاتهم سدى ولا تذهب أعمالهم أدراج الرياح ، وأساس ذلك التربية وسرعة حركة التجارة ، والصناعة بالتفتات الحكام وتيقظهم لذلك فترى هذا رأى العين ، إذا سكنت على شارع من الشوارع العامة ذهاب الناس والعربات والبضائع من كل الجهات على الدوام في ليل أو نهار حتى الساعة الأخيرة التي من شأنها نوم جميع الناس فيها لها ناس يعملون فالحركة مستمرة والناس مجدون في أعمالهم»<sup>(٣)</sup> .

ثم انتقل الباجورى إلى إنجلترا فوصف مدينة (لندرة) وتقدم العلوم فيها وبخاصة في مدرستها الجامعة ، ومدارسها الأخرى وجمعياتها ، ومستشفياتها ( وفريقاتها ) أى صناعاتها الخاصة بالسكر وبناء السفن والأنسجة وصب الفولاذ والصباغة ، ونسيج الصوف ، والقطن ، والدباغة ، ومعامل الزجاج وغيرها<sup>(٤)</sup> .

ومن مظاهر التقدم الأخرى التي أشار إليها الباجورى : البنك الإنجليزي ، وما يقدمه من خدمات مصرفية لأهل (لندرة) وغيرها هذا فضلا عن الحديث عن التمدن والتجارة في مدينة (لندرة) فقال : « متجر مدينة لندرة وحده يساوى خمس تجارة المملكة الإنجليزية كلها وبها جملة من البورصات المهمة ومينائها أعظم ميناء في العالم وكذا أرسفتها التي عددها ٧ ، الصادر منها سنويا يساوى ٢٠٠ مليون جنيه ، ويدخل مينائها في السنة نحو ١٢ ألف سفينة»<sup>(٥)</sup> .

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٣ .

وقال الباجورى: إن أول سكة حديد في أوروبا عموما قد أنشئت كانت في إنجلترا، ثم ذكر تسلسل البلدان التي استخدمت السكة الحديدية في بلادها كما يلي : «افتتحت أول سكة حديد في إنجلترا سنة ١٨٢٥م ، وفي بلاد النمسا وفرنسا ١٨٢٨ ، وفي ألمانيا وبلجيكا ١٨٣٥ ، وفي بلاد روسيا ١٨٣٨ ، وفي إيطاليا ١٨٣٩ ، وفي بلاد أسبانيا ١٨٤٨ ، ثم ذكر بلاده مصر سنة ١٨٥٦ » ، ثم يعلق على هذا بقوله : «فلو نظرت إلى هذا وجدته دليلا واضحا على تقدم الأمة الإنجليزية خصوصا صناعة الآلات الميكانيكية»<sup>(١)</sup> .

ثم انتقل الباجورى من إنجلترا إلى هولندا فوصف التجارة والصناعة في مدينة روتردام وكذلك مدينة ليدن ، ثم أمستردام ، ثم بعض المدن الألمانية التي زارها كذلك مثل كولونيا ، ثم مدينة هامبورغ التي قال عنها وهي أعظم مدن ألمانيا عموما كتبها ٢٠٠ ألف مجلد ، وبها مدارس عليا ووسطى وابتدائية ، لكل الفنون من بحرية وتجارية وغيرها ، وتكلم عنها كميناء تجارى فقال لها : « أعظم ميناء أوروبا البحرية التجارية بعد لندرة ، وليفربول من بريتانيا ، وتجارها رواج زائد لها علاقة مع كل المدن المهمة في الأقسام القريبة والبعيدة في البواخر البحرية »<sup>(٢)</sup> .

وفي رحلة لأحمد زكى ( من مصر ) بعنوان : ( السفر إلى المؤتمر ) ١٨٩٣ ، وصف التقدم في إيطاليا بقوله : « وبرعوا في الفنون الظريفة ولا بدع إذا قلت في هذا المقام إن كل طلياني لا بد أن يخلق نابغا بالطبع في الرسم والتصوير والنقش ، والنحت والتعمير أو التجميل والتحرير أو الموسيقى والأغانى ، ونظم القريض والمعاني ، فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جلييلة وبقايا فنية جميلة أو فوق جميلة مما لا تكاد تضاهيه مجموعة الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار في التسيار مع تيار هذا المعرض »<sup>(٣)</sup> .

(١) الباجورى ، محمد عمر ، الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١م ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٣٠ .

وأشار أحمد زكى إلى مظاهر التقدم الأخرى : « مثل العربات والسكة الحديدية والبوستة والتلغراف والبواخروالبوليس ، وما أشبه ذلك من التنظيمات من أنهم يضعون أسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام كى لا يتطرق إليها البلاء بسرعة »<sup>(١)</sup> .. كما وصف نظام مكتبة بيزا فى إيطاليا وأعجب بهذا النظام فقال : « ثم زرت المدرسة الجامعية ومكتبتها العظيمة ورأيت فيها من النظام ما يوجب الإعجاب بما .. مثال ذلك أن الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب بمقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرة وعنوانه إلى أن يرد الكتاب إلى محله ، وفى ذلك فائدتان : أولهما - حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع استقامتها واعتدالها . وثانيها - التنبيه على أن هذا المكان يشغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لإعلام من يريد أن يجيل ناظره على الكتاب فقط، ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية ، وأخرى لحفظ الكراريس والأجزاء التى تظهر فى أوقات معينة من كتاب واسع كبير حتى لا يتولاها التلف والضياع ، ومتى تمت الكراسات والأجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها »<sup>(٢)</sup> .

ووصف أحمد زكى كذلك مدينة ( لوندرة ) أى لندن فى رحلته ، فقال : « حتى إذا وصل المحطة (القطار) زادت الدهشة مما يراه فيها من الاتساع وكثرة الأرصفة ، وجسامة المباني وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ، ثم متى دخل فى شوارعها وسار فى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه »<sup>(٣)</sup> .

ويرى أحمد زكى أن من جملة أسباب التقدم فى بريطانيا كثرة الشركات والجمعيات المنضبطة وأوضح ذلك بقوله : ولكنى أقول إن الشركات والجمعيات ،

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

وما بينها من المزاحمة الممدوحة ، والمناظر المحموده هي روح هذه الحركة وأس هذا الارتقاء فمهما نظر الإنسان إلى أى عمل من الأعمال رآه في يد شركة من الشركات، وليس للحكومة دخل في شىء ما سوى المراقبة العالية التى تجعل الجمهور فى أمان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فإن الأمة قائمة بنفسها مكدة فى طلب المكاسب والمعالي بما يفيدها ، ويرفع شأن دولتها ، من غير أن تتنازل وتمد يدها لإمداد الحكومة ماديا ، أو معوتتها معنويا ، حتى إن الإنسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤون العقليات أو المحسوسات ، كيف أن مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات، نعم، فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد ، ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى وإضافتها للدولة الإنجليزية على يد شركات تجارية»<sup>(١)</sup> .

ووصف أحمد زكى بلاد بريطانيا بأنها « بلاد التعاضد على الأعمال والتباعد عن الخمول والإهمال ، ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاعتدال على إثماء المال»<sup>(٢)</sup> .

ويرى أن تقدم الأمة البريطانية يرجع إلى نشاط أفرادها ، فقال : « وذلك لأن أفراد الأمة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا إلا للعمل والاكتساب ، ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى إن بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهب للرسم والتصوير أو التطريز والتديج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ، ولا تكون كعلاء على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ، ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خاليات من العمل منغمسات فى البطالة والكسل ، وذلك شأن الشباب أيضا ... وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الأمم ، ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القناطير المنقطرة ، فلا بد له من التكبس بعرق جبينه»<sup>(٣)</sup> .

(١) زكى ، أحمد ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

وفي الكتاب المرسوم بـ « الدنيا في باريس » لأحمد زكي ، يرى ويؤكد على «عظم المدينة» في أوروبا و « جلاله الحضارة » فيها ، ويرى أن هذا التقدم يجب أن يحرك في العرب تنشيط الإحساس والشعور بمواكبة التقدم ، ليكون من ورائه عظم الأعمال<sup>(١)</sup> .

وهكذا يتبين أن الرحالة العرب قد تنبهوا إلى فهم أسس التقدم الصناعي ، والمعرفي العلمي في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، من حيث سيادة القانون والعدل السياسي والاجتماعي ، هذا فضلا عن مثابرة الفرد الأوروبي وسعيه المتواصل لتحقيق الرقي في كل مجال من مجالات الحياة وصولا إلى دولة المؤسسات التي تحفظ الأمن والرخاء والرفاهية لجميع أفراد المجتمع وبدون استثناء .

### النظرة إلى الحياة الاجتماعية :

من الظواهر العامة التي ميزت كتابات الرحالة العرب في القرن التاسع عشر عن البلاد الأوروبية ، توسعهم في الحديث عن مكونات المجتمعات الغربية من حيث الطبقات فيها ، والدين والعادات الاجتماعية في اللباس ، والأكل ، كما لفت انتباههم بصورة خاصة المرأة الأوروبية ، ووضعها في المجتمع ، وهذا منتظر ، لانفتاح المرأة على المجتمع هناك ، ومشاركتها الفاعلة فيه ، وفي مختلف نشاطاته الثقافية والاقتصادية بصورة تختلف كلياً عن المرأة في المشرق آنذاك .

وصف رفاة الطهطاوى مجتمع باريس بأنه ثلاث طبقات كما يفهم من خلال العمران فيها ، فيقول : « وقد جرت عادتكم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب ، المرتبة الأولى : بيت عادي ، والثانية : بيت لأحد من الكبار ، والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها . فالأول : يسمى بيتا ، والثاني : يسمى دارا ، والثالث : يسمى قصرا أو سراية »<sup>(٢)</sup> .

(١) زكي ، أحمد ، الدنيا في باريس ، ١٩٠٠م ، ص ٢٧٢ .

(٢) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

وعن طبائع «الفرنساوية» يقول الطهطاوى : «ومن طبائع فرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل في سائر الأمور خصوصا في أمر الملابس فإنه لا قرار له أبدا عندهم ولم تقف لهم إلى الآن عادة في التزيى . ومن طباعهم الطيشان والتلون فيتنقل الإنسان منهم من الفرح إلى الحزن وبالعكس ، ومن الجدد إلى الهزل وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب في يوم واحد جملة من أمور متضادة ، وهذا كله في الأمور غير المهمة ، وأما في الأمور المهمة فأراؤهم في السياسات لا تتغير كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى إنهم قد يلقون أنفسهم في المهالك لمصلحة تعود على أوطانهم»<sup>(١)</sup> .

ويضيف الطهطاوى «ومن الركوز في طباعهم حب الريا والسمة لا الكبر والحمد.. طباعهم الغالبة وفاء العهد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة .. ومن طباعهم الغالبة الصدق .. ويعتنون كثيرا بالمروءة الإنسانية ، ومن خصالهم أيضا صرف المال في حظوظ النفس والشهوات الشيطانية واللهو واللعب ، فإنهم مسرفون غاية السرف ، ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهم سواء كنّ حَمَّالات أم لا»<sup>(٢)</sup> .

وعند حديثه عن أمور الأسرة ، والأولاد وتربيتهم في باريس يشير الطهطاوى إلى أن «أولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا في الفرنسيين على الإطلاق والعادة أنهم لا يُرجون أولادهم قبل تمام تعلمهم وهذا يكون غالبا في عشرين إلى خمس وعشرين سنة فقل منهم من كان في سن العشرين ولم يبلغ درجة التدريس أو تعلم صنعة التي يريد تعلمها ، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن وهذا السن في الغالب يظهر به براعة الإنسان وحسن طالعه»<sup>(٣)</sup> .

أما الدين في باريس فكان له نصيب من الحديث عند رفاة الطهطاوى إذ قال : «إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٧٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٩٢ .

دينه ولا غيره له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب . ويضيف في هذا الأمر قوله : «إن كثيرا من الفرنسيات خصوصا سكان باريس ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم في أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا على ذكر الآخرة ، تراهم ما دامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم من يقيم على دين آباءه يؤمن بالله ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء من العوام والخواص»<sup>(١)</sup> .

أما من عادات أهل باريس في الأكل فيذكر الطهطاوى ذلك . ويقول : « وعادة الفرنسيات الأكل في طباق كالتباق العجمية أو الصينية لا في آنية النحاس أبدا ، ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة أو الشلينة أن لا يمس الإنسان الشئ بيده ، وكل إنسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق .. وبالجملة فأداب سفرتهم ، وترتيبها عظيم جدا ، وابتداء المائدة عندهم الشورية ، واختتامها الحلويات والفاكهة ، والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفي الغالب خصوصا لكبار الناس ، يُشرب من النبيذ قدر لا يسكر به أبدا»<sup>(٢)</sup> .

ووصف الطهطاوى طريقة الأكل ، إذ قال : « فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينته أو يشرب من قدهه أبدا ، يزعمون أن هذا أنظف وأسلم عافية»<sup>(٣)</sup> .

أما طعامهم ، فلم يعجب الطهطاوى إذ قال : « فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة في فواكه هذه المدينة إلا في الخوخ»<sup>(٤)</sup> .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٣٢ - ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٣٠ .

وكان للمرأة نصيب من كلام ووصف الطهطاوى لأهل باريس ، فيذكر أن «عادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته والقفا وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين»<sup>(١)</sup> . ويضيف كذلك قوله : « ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ، حسان المسيرة ، والملاطفة ، يترجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال في المتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال ، سواء الأحرار وغيرهن خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصرى ، ويوم بطالتهم ويوم الاثنين في البارات والمراقص .. ومما قيل : إن باريس جنة النساء .. وذلك أن النساء بما منعمات سواء بمالهن أم بجمالهن ، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء ، عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه ويتره عشيقته»<sup>(٢)</sup> .

وحول عمل المرأة ، فإن رفاة الطهطاوى يصف نساء « باريز » بقوله : « فهن كالرجال في جميع الأمور»<sup>(٣)</sup> .

ومن الأمور التي انتقد فيها رفاة الطهطاوى المرأة في باريس والمجتمع الفرنسى ما نصه « ومن خصائصهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم .. وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الإسلام من الغيرة .. وبالجملة فهذه المدينة ( باريس ) كباقي مدن فرنسا ، وبلاد الإفرنج العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا ، وديار العلوم البرانية»<sup>(٤)</sup> .

أما أحمد فارس الشدياق فقد وصف المجتمع الأوروبى فى كتب رحلاته الموسومة بـ « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » و « الساق على الساق فى ما هو الفاريق » و « كشف المحببا عن فنون أوروبا » . واللافت للنظر أنه انتقد المجتمع الأوروبى انتقادا شديدا مركزا على مساوئه أكثر من غيره من الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا آنذاك وسجلوا ملاحظاتهم عن المجتمع الأوروبى .

(١) الطهطاوى ، تخلص الإبريز ، ص ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٨٣ - ٨٣ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨١ .

وحول الزواج في المجتمع الإنجليزي ، قال الشدياق منتقدا الغاية التي تدفعهم إلى ذلك : « أليس من العار على الرجال في هذه الأرض أرض العلوم والصنائع والتمدن والتحضر أنهم لا يتزوجون عن حب بل عن طمع في زيادة المال ، فإن من كان دخله مثلا مائة دينار في كل يوم يريد أن يتزوج من دخلها مائة دينار أيضا تماما ، ولو كان تسعة وتسعين لم يصح ولذلك فكثيرا ما ترى شابا جميلا قد تزوج نصف شوهاء ، وهيهات ، فإن الرجال هنا أكثرهم مصاييف أى لا يتزوجون إلا إذا دخلوا في حيز الكهول ، فيقضون شبابهم في السفاح. ومن حد الثلاثين إلى الأربعين في البحث عنم عندها جدة وغنى، وتبقى الجميلة الفقيرة كاسدة وما عليهم من الإضافة من عار»<sup>(١)</sup>.

وأبرز الشدياق بعض مساوئ مجتمع لندن ، قال : « ألا ترى إلى هؤلاء ، الألوف من البنات اللاتي يجرين في أسواق لندن ، وجميع المدن العامرة ، بأخلاق من الثياب ، كيف يتهاقن على الرائح والغادى رجاء أن ينلن ما يتقوتن به ويتجملن به من الثياب، ولاسيما هؤلاء النواشئ اللاتي لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة ، فهذا لعمري الاحتجان بعينه فكيف يعييون علينا هذه في بلادنا ، وهى مستعملة عندنا على وجه الحلال ، وعندهم بالحرام ، فلو كن مكفيات المونة لما فعلن ذلك لأن البنت في هذا الحد من السن لا تكرر إلى الرجل ، ولا تضيع إلى البغال ، ولاسيما في البلاد الباردة ، ولسلم من كيدهن ، وتمافتهن خشعا إلى المال إناس كثيرون جلب عليهم شرهم إليهن مضار كثيرة ، وما عدا ذلك فإن هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة وأهل الكنيسة يعنون بتجهيزهن بما يقدرون على الزواج الشرعى بعد تربيتهن وتهديبهن ، لكن يلدن الأولاد الصباح فيزيّن المملكة بأثمار أرحامهن»<sup>(٢)</sup>.

وعند كلام الشدياق عن عادات أهل مالطة في الزواج والأوروبيين عموما قال : « فهو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة وربما أقام على ذلك ثلاث

(١) الشدياق ، أحمد فارس ، الساق على الساق في ما هو الفاريق ، قدم له وعلق عليه ، الشيخ

نسيب وهيبة الخازن ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) ، ص ٥٩٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٩٣ .

سنين فأكثر .. ولا يخفى أن النساء في بلاد الإفرنج هن اللواتي يمهرن الرجال ، فالأغنياء من المالطين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة ، والذين هم من الوسط ، يؤثثون له منزله من فرش وكراس وموائد وآلات الطبخ ، وينقدونه شيئا من الدراهم ، والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك، وعلى الزوج أن يهادى حمها بأحذية ، ويضيف : « وأهل مالطة أشد الخلق تهافتا على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان ، وهما لا يشبعانه خبزاً وإداما ، وإنما يثق بأن زوجته تساعد على الشغل وتكسب مثله .

ويصف الشدياق أخلاق المرأة المالطية والإنجليزية فيقول : « وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق ، فإن المرأة تجرى وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهتمها كون الرجل فقيراً أو جاهلاً أو شريراً ، غير أن النساء هنا لا يجترمن أزواجهن ، فكثيراً ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس ، وكلهن إذا تكلمن يرفعن أصواتهن إلى حد يبقى عنده الغريب مبهوراً ، ويرجع كل هذا في أنهن تخلقن بأخلاق نساء الإنجليز »<sup>(١)</sup> .

ووصف الشدياق سلوك المرأة في مالطة عندما تكون حاملاً ، إذ قال : « ومتى كانت إحدى نساء مالطة حاملاً مشت الخيلاء ، ورفعت بطنها ليراها كل من مرّ بها ، ومتى أبصرت ذا شوهة ، رسمت الصليب على بطنها تعوداً من سريان الشوهة إلى الجنين ، وإذا شمت في الطريق رائحة طبيخ وتوحّمت عليه بعثت تستهدى منه » . وحول حلى النساء في مالطة يقول : « أما حلى النساء فالذهب غالباً للأغنياء والفضة للفقراء »<sup>(٢)</sup> .

وعقد الشدياق فصلاً في كتابه الواسطة عن عادات المالطين وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وحول لباس نساء أهل مالطة قال : « عادة أهل مالطة المتشيعين في اللباس

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٥٤ - ٥٥ .

كعادة الإفرنج إلا أن نساءهم يلبسن وشاحا من الحرير الأسود وعلى رؤوسهن غطاء منه أيضا من دون برنيطة . أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطته»<sup>(١)</sup> .

وتكلم الشدياق عن « الموضة » وأثرها في المجتمعات الأوروبية آنذاك وبخاصة في الأرياء فيقول : « فأما تغيير الزى عندهم فإنه يقضى بمصاريف حديثة غير ضرورية ، ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس ، فتطبع صورته على أوراق وترسل إلى جميع البلاد، وهذا دأب الناس من أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها»<sup>(٢)</sup> .

ولقد استغرب الشدياق بعض عادات أهل مالطة والإفرنج في الأكل ، في كونهم يطبخون الدم ، يأكلون المخنوق ، فقال : « وعامة المالطين يطبخون الدم ويستبقون على أكله ، وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين ، وهم وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات أخرى مما نتقزز نحن منه وقد بلغنى أن من المالطين من إذا فجع بشيء فجأة أكل فأرا أو ضفدعا لإزالة الدهشة، وأهل مالطة مثل غيرهم من الإفرنج في كونهم يأكلون المخنوق ، وزادوا عليهم في أكلهم الميتة من الدجاج ونحوها»<sup>(٣)</sup> .

ووصف الشدياق أهل مالطة عندما يكونون ضيوفا على غيرهم ، إذ قال : « وإذا دعوت أحدا منهم إلى مأدبة لم يكن منه خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل ، وعلى ذلك قولي :

لنأتم إذا زرئهم في بيوتهم كرام إذا زاروك ما أمكن اللّحس  
ولو وسعت أفواههم غير ما بها لكان لكل بين أنيابه فاس

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا فلاتزال رائحة أفواههم منتشرة»<sup>(٤)</sup> .

(١) الشدياق ، الوساطة ، ص ٥٣ ، وانظر : فهيم ، أدب الرحلات ، ص ٢٠٠ .

(٢) الشدياق ، الوساطة ، ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

انتقد الشدياق أهل القرى في كل من مالطة ، ولندن ، لبعض عاداتهم الغربية في نظره ولجلههم ، فقال عن رجال مالطة : « أما أهل القرى فإن الرجال منهم يثقبون أذانهم ويتقرطون بأقراط من الذهب ويرخون سوائف مجمدة من أفوادهم .. وهاتان صفتان من صفات الإناث ، ويلبسون طرايش مختلفة الألوان مسدلة على أكاتفهم ، ويمشون حفاة ، وجميع الأعيان في مالطة من دون أردية أدبارهم ، خلافا لعادة الإفرنج »<sup>(١)</sup> .

أما وصف الشدياق لمجتمع الفلاحين في بلاد الإنجليز بالجهل وبعدهم عن العلم فكان ذلك ما نصه : « ومن أين يأتيهم العلم وهم ملازمون للكد والتربح ، وليس عندهم مدارس ، وقد كنت أظن أنهم جميعا يحسنون القراءة والكتابة ، فإذا هم لا يحسنون السنطق بلغتهم ، فيأني أقرأ في الكتاب شيئا وأسمعه منهم مخالفا لحقيقة استعماله، وناهيك أن أكثرهم لا يعرف اسم بلادنا ولا جنسنا ، وقد قيل لأحدهم مرة أن الملك أمر بتسفير خيل في سفن لحرب العدو ، فقال : « إني أعجب كيف يقاتل الناس في البحر على الخيل . وكأني بهم لجهلهم يحسبون أن سكان الأرض بأسرهم دوغم ، أو يظنون أن الرجال في غير البلاد يبيعون نساءهم أو يأكلونهم أكلا ، أو أنهم يتقوتون بالجذور والبقول »<sup>(٢)</sup> .

وذكر الشدياق أن مجتمع لندن من الناس لا يتزاورون ، وأن الجار لا يكاد يعرف جاره ، فقال : « ومن طبعهم أنهم لا يتزاورون ولا يسهر بعضهم عند بعض ، وكيف يسهرون وهم إنما يرقدون في التاسعة ويقومون صباحا في الرابعة ، كل ذلك حتى يأكلوا الفقع ، ويشربوا الفقع أو ربما أقام الرجل سنين ولا يعرف جاره وكذا أهل المدن »<sup>(٣)</sup> .

وأنكر الشدياق على المجتمع الإنجليزى بعض الأمور منها : « ومن منكر عاداتهم التي لا يمكن أن يحولوا عنها مع علمهم بأن جميع سكان أوروبا قد خالفوهم فيها

(١) الشدياق ، الواسطة ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) الشدياق ، الساق ، ص ٥٩٦ .

(٣) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١١٩ - ١٣٠ .

حلقهم لحاهم وشواربهم حتى إن عساكرهم لم تتحلّ بما .. فليت شعري كيف يرى وجه الجندي مخفوفاً منتوفاً كوجه المرأة ثم ليت شعري أى حُسن للشباب من الشوارب ، وأى حلية وفضل وكمال للشيخ أكثر من اللحية ؟

لعمري أن الشيخ بلا لحية وشوارب ، كالقرد أشبه بالقرد منه بالإنسان ، وأن الشاب بلا شوارب أشبه بالأنثى أو الخنثى منه بالرجل ، فإنها من علامات الرجولية ومما خلقه الله من المحاسن الطبيعية»<sup>(١)</sup> .

وأنكر الشدياق على الإنجليز تربية أولادهم من حيث احترام الأولاد لوالديهم ، واحترام الشيخوخة في تلك البلاد . فقال : « ومن طبعهم أن لا يحترموا الشيخوخة من حيث هي شيخوخة ، ولا يهاب الأولاد والديهم كما يهابون عندنا ، ولا يمن الوالدون أيضاً على أولادهم كما عندنا ، ولذلك يقع كثيراً أن الأب يقتل أباه والولد يقتل والده وأمه ، وقد يحدث عندهم مضاجعة الأب ابنته ، ولكن لم يبلغنى أن ولدا ضاجع أمه »<sup>(٢)</sup> . وفي هذا إشارة واضحة إلى تفكك الأسرة وانحرافها كما يشير الشدياق .

وأشار الشدياق إلى بعض مظاهر الفساد والانحراف الأخرى في الأسرة الإنجليزية فقال : « وفي المدن الجامعة قد تتواطأ الأم وابنتها أو الأخت وأختها على الفحش والفساد » . ويضيف قوله : « فأما ما يحدث في بلاد الإنجليز من تسميم الأزواج أزواجهن والوالدين أولادهم وقتلهم ، وبالعكس ، ومن الانتحار ، وهو قتل الإنسان نفسه ، فأمر يهول وشرحه يطول »<sup>(٣)</sup> .

ووصف الشدياق دور اللهو ، والغناء في كل مكان في لندن ، وباريس ، فقال : « فأما مواضع الرقص في لندن ، تفتتح كل ليلة ، وفي باريس ثلاث مرات في الجمعة لا غير ، وفي أكثر شوارع لندن تسمع الغناء من جوار حسان ، وآلات الطرب ليلاً ونهاراً من دون غرامة ولا كلفة وليس كذلك في باريس إلا ما ندر ... أما غناؤهم

(١) الشدياق ، كشف المخبا ، ص ١٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ - ١٣٨ .

فلا يمكن لذى ذوق أن يطرب به ، وقد سمعت أغاني الفرنسيات وسائر الإفرنج فوجدت كثيرا منها ما يشجى لأن فيها ترجيعا ومدا ، فأما أغاني الإنجليز غير التي يتلقونها من الصلبيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبر ودرج <sup>(١)</sup> .

أما محمد بيرم الخامس التونسي في كتابه « صفوة الاعتبار » فقد وصف كذلك جانبا آخر من حياة المرأة الأوروبية وبخاصة في إيطاليا من حيث عملها ونشاطها وانخراطها في الحياة الاجتماعية، وانتقد سلوك المرأة الإيطالية فقال ما نصه : « والنسوة يخرجن مكشوفات الوجوه ويتعاطين من الأشغال مثل الرجال ، إلا الأشغال الشاقة ، والتعاليم للعلوم العالية ويصاحبن الأجانب عن قربتهن مثل الرجال ويقول : إن لكل شيء سببا فرؤية الذات والوجه مكشوف ، ثم المكالمة ، ثم المداعبة ، ثم الرقص في حالة شرب الخمر والطرب ثم المخاصرة كلها أسباب تدعو إلى الاتفاق طبعاً إلى ما وراءها بلا شك وإثبات ذلك بالوجود أقوى دليل حتى صار من عوائدهم أن البكارة هي التي لم تتزوج صاحبته من غير نظر إلى حقيقتها الأصلية . وهو يعلق على هذه بقوله :

« فكل بلاد حافظت على ذلك ( حجاب المرأة وعدم خروجها ) قلت فيها الفاحشة حتى كادت أن لا تقع ، وكل بلاد تساهلت في خروج النساء مكشوفات الوجوه بالبراقع الصفيقة وغط النظر عن مكالمة النسوة للرجال ، والمزاحمة في الأسواق، والجوامع فشئت فيها الفاحشة ، واتخذ رجالها هجيراً مسارتم التكلم بوقائعهم مع النساء سواء كانت بلدة إسلامية أم إفريقية <sup>(٢)</sup> .

وتعرض محمد بيرم الخامس التونسي إلى قضية الحياء عند المرأة في المجتمع الإيطالي، فقال : « وليس من عاداتهم الحياء مثل ما هو عندنا فترى البنت تخاطب زوجها وتفاكهه أمام والديها ، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها ، وترقص مع الرجال أمامهم، هذا في البنات ، فكيف بالبنين ، وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء

(١) الشدياق ، كشف المحبا ، ص ١١٩ ، وانظر : بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٤ ، ص ٥٦ .

(٢) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

فترى أكبر الأعيان يحتفل في داره بدعوة عامة وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغني في ذلك الملأ وترقص مع الرجال على أشكال شتى من معانقة ومخاصرة وغيرها ، ولا تأثيم من ذلك بل يرونه إكراما بحيث إن المسلم الغيور يتفطر مما يرى»<sup>(١)</sup> .

ووصف محمد بيرم سكان إيطاليا ونشاطهم اليومي بصورة عامة، فقال: « وسكان إيطاليا هم بيض أقوىاء مدغم أكثر أهاليها مهذبون » ، وأما ذوو الترف والأحكام فإنهم يطلبون السهر ويفيقون من نومهم مؤخرا ولا يتدثون الأشغال إلا قبل الزوال بساعة أو ساعتين أو عند الزوال ، وكثيرا ما يدعون الأحياء بعضهم للبعض للسمر والرقص في منازلهم وتارة يستدعونهم للعشاء مع ذلك وتارة يقتصرون على تقديم فواكه ، وحلويات ، وخمور»<sup>(٢)</sup> .

ووصف محمد بيرم كذلك ملابس أهل إيطاليا فقال : « ثم أهل البلد على قسمين.. الأول : الأعيان والوافدون وكلاهما لباسهم مثل لباس الأورباوين . والثاني: بقية الأهالي ومثلهم بقية سكان البوادي والقرى في الجزيرة يلبسون جلود الغنم ، بصوفها . فالصوف مما يلي البدن ، والجلد من أعلى ، وهيئة اللبس هي صدرية ، ومنتان ، وسراويل نحو السراويل التونسية لكن يجعلون على الساق ألبسة مربوطة ، والسعال خشنة ذات مسامير كبيرة ، وعلى رؤوسهم عرارق من الصوف أو فلانس من الصوف المنسوج طوال مدلاة على أكتافهم ، والنسوة يلبسن قريبا من نسوة أوروبا لكن على شكل غير نضر ، وفي أرجل أغلبهن قباقيب من خشب»<sup>(٣)</sup> .

أما الأكل في إيطاليا فذكر محمد بيرم التونسي ذلك فقال : « والأكل رخيص هناك » ولفت انتباهه هناك وبخاصة في المطاعم أن هناك « بطاقة بشكل لطيف مكتوب بها ألوان الطعام الحاضر لتلك الأكلة حتى تأخذ مما تشتهي » . ثم قال : « كل صحن حوله ملعقة وشوكة وسكين . وبعد الفراغ من كل لون يبذل

(١) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

(٣) بيرم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤ - ٥ .

الصحن والسكين والملقعة بغيرها نظيفة ... وفي وسط المائدة أوان بالزهور بحيث إنه في غاية المنظر الحسن والنظافة ... وطعامهم له أنواع شتى أحسنها أنواع المشوى ... ولهم كتب مؤلفة في تركيب الأكل والطبخ»<sup>(١)</sup> .

أما محمد عمر الباجورى الذى طاف أوروبا في عام ١٨٨٩ فقد أعطى صورة مشرقة للحياة الاجتماعية في أوروبا ، القائمة على الاستقرار والأمن لعموم الناس مما يساعدهم على التقدم والحفاظ على ممتلكاتهم وأعطى الباجورى مثالا على ذلك القرى التى هى خارج مدينة فينيسيا بإيطاليا فقال : « وكنا نرى القرية الصغيرة وسط المزارع مؤلفة من نحو ١٠ أحياء فسألنا أهل تلك البلاد : أفلا يكون صغر القرية سببا لسطو اللصوص عليها فقيل لنا إنه لا يوجد فى القرى لصوص بل ذلك يكون فى المدن لسرقة النقدية والمصاغ مثلا ، وعلى الغالب لا يتبعون إلا الغريب ، وأما الحيوان فلا يُسرق فكان هذا القول فيه لنا فائدتان .. الأولى : أننا عرفنا إنه لا يوجد سطو فى القرى الثانية : أننا أخذنا حذرنا فى المدن من اللصوص حيث إننا أغراب ظاهرون لكل الناس»<sup>(٢)</sup> .

ووصف الباجورى « نساء باريز » كغيره من الرحالة ، فقال : « نساء باريز خصوصا وأوروبا عموما فى المعارف كالرجال فيشاركنهم فى علوم كثيرة كالجغرافيا والتاريخ والهندسة والحساب والكتابة والقراءة والفلسفة إلى غير ذلك .. وأما فى الأعمال فيزدن على الرجال فترى الواحدة منهن ترأس محلا ( كما يرأس الرجل ) كقهوة أو حمام أو لوكاندة أو محل تجارة وتدبر أمره على أحسن ما يكون ، وتفرد المرأة بتدبير المنزل وترتيبه ، وتربية الأولاد تربية تناسب حال الزمان والمكان وتعمل بيدها ما لا يعمله الرجل كخياطة وطرارة وتنتلا وركامو وغير ذلك»<sup>(٣)</sup> .

(١) بيم التونسي ، صفوة الاعتبار ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٥٩ .

(٢) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ١٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ .

وقال الباجورى : « كل ما ذكرناه في نساء باريز ، ورجالها يعتبر عاما في نساء أهل أوروبا بأجمعهم ، بحيث لا يتميز فيهم ناس عن آخرين فكان مناديا جمعهم ونادى عليهم بالاتحاد والمساواة في معرفة الآداب العمومية والقراءة والكتابة والدأب في الأعمال والجهد في تحصيل المعاش بدون فتور ولا كسل ، وأن لا يقتصر واحد منهم على معرفة صناعة واحدة بل لا بد له من صناعات بحيث لو عجز عن صناعة لسبب ما يمكنه أن يستعمل الأخرى في معيشته ... ومن طباعهم الولوع برؤية الأشياء والبحث عن أسبابها واعتبار قيمة العلوم والفنون لما علموا أن التقدم والسعادة لا يكونان إلا بمعام مع لطف المعاشرة ولين الجانب وحسن المعاملة ورعاية الحقوق ونسبذ الجور ، وإبعاد الشر وعدم الكذب ، وخلف الوعد ، والخيانة في المعاملات .. غالبا هذه أوصاف أهل أوروبا نساء ورجالا »<sup>(١)</sup> .

أما ملابس النساء فقال الباجورى : « وأما ملابسهن فهي مقبولة مناسبة لأحوال بلادهن من البرد مع كونها لا تخلو من الزينة والزخرفة والإتقان وحسن الشكل » .

كما وصف الجمال عندهن بقوله : « وأما في الجمال فعلى الغالب لهن فيه درجة مناسبة ومن لم تكن جميلة بمخلقتها تصنعن جمالا فلا تخرج من بيتها إلا أن بعد تعمل في نفسها عملا بقدر إمكانها تظن أنها بعد ذلك تعجب الرجال حتى لو كانت عجوزا ، ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر »<sup>(٢)</sup> .

وأشار الباجورى إلى جملة من عادتهن ، وطبائعهن ، ودرجة عفتهم ، فقال : «ومن عادتهن كشف الوجه ، والرقبة ، والكفين ، فيتمكن الإنسان بذلك من معرفة الجميلة من غيرها ، وأما طبائعهن ففيها رقة ولطف وبشاشة لا سيما للغريب ، متى عرفته الواحدة لا تكاد تنساه ، ولا تفارقه وتعمل له من المساعدة كل ما قدرت عليه... وأما عفتهم فتناسب خلطة النساء بالرجال في الخارج والداخل ورقة طباعهن مع وجود الميل الغريزي والشهوى الطبيعية في الجنسين عند اجتماعهما فكثيرا ما يعشق الرجل امرأة ، ويهجر زوجته من أجلها فقد ثبت في الإحصائيات التي

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

عملت عندهم أن عدد النساء المهجورات من أزواجهن خمسة وتسعون بالمئة ، وعدد الزناة واحد وسبعون بالمئة ، فلا شك أن مثل هذه الأحوال مما يوجب الفساد بكثرة خصوصاً وعندهم الزواج نوعان : زواج شرعى ، وزواج مدنى . أما الأول : فهو ما حصل رسمياً فى الكنيسة أو الحكومة بعلم الناس ، وأما الثانى : فهو باتفاق الرجل مع امرأة خالية من الأزواج على أنما تعيش معه ولا تذهب إلى غيره ، وأما درجتهم عند الرجال فهى فى المترلة الأولى والدرجة القصوى ، فلهم من الاعتبار ما لا يساويهم فيه الرجال ، فترى الواحد إذا قابل امرأة مع زوجها أو أبيها ، لا بد أن يسلم عليها أولاً ثم على الرجال ثانياً ، وإن فعل غير ذلك عدوه غير متمدن»<sup>(١)</sup> .

أما الأكل فقد وصفه الباجورى كغيره من الرحالة ، فركز أساساً على « أن الأكل عندهم لا يكون بالأيدى مباشرة بل بواسطة الشوكة والسكين والملعقة ، ولذا تراهم لا يغسلون أيديهم من الأكل»<sup>(٢)</sup> .

وتعرض الباجورى إلى وصف أخلاق أهل مدينة (استوقهولم) ومملكة السويد فأشاد بهم أيما إشادة فقال : « أخلاق أهل مملكة السويد عموماً ومدينة استوقهولم خصوصاً فى غاية الاعتدال ، ومعرفة مقادير الناس وإعطاء كل ما يليق به من التشريف والاعتبار والإكرام ، وعندهم الغرباء فى مترلة عالية ، ودرجة رفيعة ، وأهمية كبرى فتراهم يعطفون عليهم عطف الأهل على أهليهم من حسن المعاشرة ، ويوافقونهم كل الموافقة حتى يكاد الإنسان ينسى أهله بما يراه منهم من جميل الشيم وحسن العادات ، ولهم مروءة واهتمام بهم كما يهتمون بأنفسهم ، ومن أخلاقهم العالية ، وأوصافهم المقبولة الأمانة التى لا يساويهم فيها أحد تقريباً ، بل هى عندهم فى رتبة لا تضاهى ، ومكانة لا تسامى»<sup>(٣)</sup> .

(١) الباجورى ، الدرر البهية ، ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤ .

أما على بن سالم الورداني التونسي الذي زار إسبانيا في أيلول من عام ١٨٨٧ م ، فوصف كرم ويخل أهالي إسبانيا إذ قال : « إن أهالي جنوب إسبانيا كغرناطة وبلنسية وغيرها إذا دخل عليهم الضيف وهم يأكلون يعرضونه إلى الطعام كعادات العرب بخلاف سكان شمال إسبانيا فإنهم عاملون بقول الشاعر :

قومٌ إذا أكلوا أخفوا كلامهم      واستوثقوا برتاج الباب والدار<sup>(١)</sup> .

كما وصف على الورداني التونسي مجتمع مدينة مدريد وصفا طيبا منتقدا سلوك بعض شرائحه الفقيرة إذ قال : أما أهاليها فعلى غاية من اللطف والبشاشة مع الأجانب إلا أن الفقراء فيها كثيرون جدا وإذا وجدوا أجنبيا أحاطوا به وربما منعه من المرور ، وحالتهم سيئة جدا ومن الغريب أن الأوروبيين يعيرون علينا لوجود السُّؤال في بلادنا والشحاذون عندهم أشد نكبة ، وأبرد قلبا مما هم عليه عندنا»<sup>(٢)</sup> .

وأبدي على بن سالم الورداني التونسي استغرابه من سلوك النساء العاملات في البيوت بعد إتمامهن أعمالهن في إسبانيا إذ قال : « إن النساء المستخدمات بعد إتمام أشغالهن يخرجن من البيوت فيقفن عند أبوابها يستعرضن بأنفسهن للمارين . فإذا راودهن القاصد اتفقن معه وذهبن به إلى حيث الهوى والموبقات وأكثر ما تكون هذه الحالة أمام دور الأغنياء والأكابر ولا حرج عليهن في ذلك مطلقا»<sup>(٣)</sup> .

وتناول أحمد زكي في كتاب رحلته الموسوم بـ ( السفر إلى المؤتمر ) ١٨٩٣ م جملة من هذه المواضيع فقد وصف متناقضات عادات المجتمع الإنجليزي في ( لوندرة ) (أى لندن) فقال: « وفي يوم الأحد يكثر السكر والسرقة أيضا لأن الإنجليز لا يعرفون الوسط فإن بلادهم بلاد التناقض جمعت الأطراف ، فإما التناهي في الغنى وإما التناهي في الفقر ، وإما التناهي في الفضيلة والمعارف ، وإما التناهي في الرذيلة والفجور، وإما

(١) على بن سالم الورداني التونسي، الرحلة الأندلسية (١٩ سبتمبر ١٨٨٧ م) تحقيق ودراسة عبد الحكيم القفصي، مجلة أوراق عدد ٥ - ٦، مدريد، ١٩٨٢ - ١٩٨٣ (ص ١١٥ - ١٣٠)، ص ١٢٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

التناهي في العمل وإما التناهي في الكسل ، إلى غير ذلك من الأطراف حتى إن المدينة إما أن تكون غاصة بالجماهير أو تكون خلوا من العالم بالمرّة ( في يوم الأحد ) وهكذا»<sup>(١)</sup> .

وعلق أحمد زكى على الملابس الأوروبية ، ويرى عدم ملاءمتها لنا في بلاد الشرق ، هذا فضلا عن المساوي التي تترتب على اتخاذ هذه الملابس في بلادنا مثل «إماتة كثير من صنائعنا وصناعتنا ، وإحياء صناعات الإفرنج السريعة العطب ، ومساعدة التجارة الأجنبية على استتراف ما بقى لنا من قليل الثروة»<sup>(٢)</sup> .

أما المرأة في باريس فلأحمد زكى فيها رأى آخر ، فقال : «أرسلوا إلينا مثلا تناقلته الأفيواه وهو ( إن ما تريده المرأة يريد الله ) لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والأمر المطاع فلا يقدم الرجل منهم على أمر لا ترضاه زوجته ، ومتى أقدمت هي على عمل أو تعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضى به والإقرار بوجوبه ، وأن لا مندوحة عنه وهم يبالغون في إكرام المرأة والتأدب في حقها ( ولو ظاهرا ) بما يفوق الوصف ، وفي تثقيف عقلها بجميع أنواع العلوم والمعارف ( حتى لا يقدم إليها إلا فحول الرجال ) ، ولذلك نبغ منهن الكاتبات والمحركات والشاعرات والخطيبات والمصورات والمشخصات والمحاميات والطيبات والمخترعات في كل أمر ذى بال أو غير ذى بال»<sup>(٣)</sup> .

ويعطى أحمد زكى رأيه في حرية المرأة في باريس فيقول : «إني من أهل المذهب القائل بعدم إطلاق الحرية للنساء إلى هذه الدرجة التي تجاوزت الاعتدال إلى التطرف في الإفراط ، فإن المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات ، والتفانى في الملاذ ، فالواجب أن تكون الحرية لمن كالملاح في

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ١١٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

الطعام، فإن التعليم ليس بقادر أن يترع منهن هذه الأميال ، وإن نزع منهن الخرافات التي ييشنها في عقول الأطفال<sup>(١)</sup> .

كما تكلم عن خيانة المرأة الأوروبية لزوجها في كل من : ألمانيا ، وبلجيكا ، وإنجلترا ، والنمسا ، والدنمارك ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وإسبانيا ، واليونان ، وقال : «فإذا سلمنا بما استنتجه الأستاذ الألماني كستتر (الذى نشر دراسته تلك عن الخيانة الزوجية) رأينا أن في التحجب وفيما يقرب منه فائدة عظيمة في صيانة الأعراض»<sup>(٢)</sup> .

### الخلاصة :

إن نظرة الرحالة العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر ، أظهرت أن هؤلاء الرحالة قد سبروا أغوار جميع مجالات الحياة في أوروبا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ففى الجوانب السياسية : أكد هؤلاء الرحالة على بعض أسباب التقدم في أوروبا بعامة يرجع إلى سيادة القانون الذى يضبط سلوك الحاكم والمحكوم ، هذا فضلا عن حرية التعبير ، والحريات الشخصية ، القائمة كلها على العدل والإنصاف . وفى الجوانب الاقتصادية وتقدمها : ركز هؤلاء الرحالة على أن تقدم العلوم النظرية والعلمية، كان وراءها العقل الأوروبي المنفتح، والمدقق فى كل شىء ، الذى لم يكن أسير التقليد، بل حاول معرفة أصل الشىء والاستدلال عليه ، ولذلك وصفوا كل ما شاهدوه من مظاهر التقدم الصناعى والعلمى فى أوروبا وبخاصة التركيز على أحدث المخترعات ، ووسائل الرفاهية التى توافرها تلك المخترعات وتشجيع القائمين عليها ، وتيسير سبل الوصول إلى نتائج فرضياتهم وأفكارهم الجديدة .

وبين الرحالة العرب أن من الأسباب الأساسية للتقدم فى أوروبا عموما حسن النظام والتنظيم، وسيادة الأمن ، والشركات والجمعيات التى شكلت هناك ما يعرف

(١) زكى ، السفر إلى المؤتمر ، ص ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٦٥ - ٦٦ .

بدولة المؤسسات . أما في نظرهم إلى الحياة الاجتماعية : فقد وصف الرحالة العرب المجتمعات الغربية من خلال إعطاء صورتين أساسيتين حولها ، الأولى : إيجابية ، والثانية : سلبية .

ومن النواحي الإيجابية التي سجلوها عن المجتمعات الغربية ، الصدق والأمانة وتنظيم الوقت ، والعمل الدؤوب على مدار الساعة ، وأعطوا صفات إيجابية للمرأة الأوروبية منها : مساهمتها كالرجال في مباشرة أعمالها ونشاطها ، وقد لمسوا آثار ذلك بصورة عملية في كل مجالات الحياة والتقدم في أوروبا ، وبخاصة أنها على قدر كبير من الثقافة والتعليم ، وتحصيل الفنون ، هذا فضلا عن الحديث عن الاستقرار في المجتمع واحترام الناس بعضهم البعض وعدم التدخل في شؤون الغير ، والأمن على الممتلكات واحترام المواعيد .

أما النواحي السلبية التي سجلوها عن المجتمعات الغربية فكانت ترتبط بشكل أساسي بالفكر العربي الإسلامي ، والعادات الموروثة عندهم ، فنظروا إلى الغرب من حيث عاداته وطبائعه وأخلاقه ، على أنها لا تصلح للمجتمعات العربية ، ورأوا أن فيها خطرا كبيرا وعظيما على تركيب وتكوين المجتمع العربي وأخلاقه وعاداته .

ولقد وصفوا مساوئ المجتمعات الغربية من حيث : تفكك الأسرة ، وعدم التدبير، وانتشار الفساد الأخلاقي والفاحشة بين نساء أوروبا ، ويرجع هؤلاء الرحالة أسباب ذلك إلى أنها تتصل بسفور المرأة واختلاطها بشكل كبير بمجتمع الرجال هناك، نتيجة للحرية الزائدة في نظرهم التي منحت لنساء أوروبا .

وانتقد الرحالة العرب طعام الأوروبيين لأنهم يأكلون الميتة والحيوانات المخنوقة .. هذا فضلا عن انتقادهم لما يحدث هناك من الانتحار ، والقتل في داخل الأسرة الواحدة، مظهرين التفكك الأسرى بصورة واضحة ، كما انتقدوا عدم معرفة الجيران بعضهم البعض ، ووصفوا المجتمع القروي البعيد عن المدينة بالجهل وعدم المعرفة بما يحيط بهم وبالمعالم ، لكونهم غير متعلمين ، هذا فضلا عن وصفهم الأوروبيين بأنهم يحبون الرياء ، وارتفاع الصيت ، وعدم استقرار المزاج .

وهكذا فقد لوحظ أن الرحالة العرب إلى الغرب لم يلاحظوا أى نقص عندهم تجاه هذه الحضارة المتفوقة ، لأنهم نظروا إليها على أساس أن هذا التقدم وهذا التفوق لم يكن بسبب ميزات خاصة موجودة في أهل أوروبا وحدهم بل نتيجة للجد والرغبة في التقدم ، وأكدوا على أن البلاد العربية قادرة على اللحاق بهذا الرقى ، بنفس الطريقة ، مع توفير الوسائل الضرورية الأساسية .. لذلك فإنهم آمنوا بنفع هذه الحضارة الغربية للبلاد العربية ، فحثوا بنى جنسهم على الأخذ بها ، ولكنهم نبهوهم إلى أن هناك مساوئ في الغرب عليهم تركها جانباً ، والابتعاد عنها ، لخطورها على المجتمع العربى الإسلامى وبنيتة الخاصة التى ينفرد بها عن غيره من أمم الأرض .

\* \* \*

## الهوامش

- (١) أبو لغد ، إبراهيم ، انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة محمود السمرة ، مجلة العربية ، العدد ٦٩ ، آب ١٩٦٤ ، ص ١٣٦ ، انظر فهيم حسين ، أدب الرحلات ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٨٩ ، ص ٢٠٠ .
- (٢) الطهطاوى ، رفاعة ، تخلص الإبريزن وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ص ٣ . ٩٩ .
- (٣) المصدر نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٣ ، ١١٢ .

## المصادر والمراجع

- ١ - الباجوري ، محمد عمر  
الدرر البهية في الرحلة الأورباوية ، ١٨٩١ م .
- ٢ - بريم التونسي ، محمد الخامس  
صفوة الاعتيار بمستودع الأمصار والأقطار ، ٥ . ج في ١ ، القاهرة ، ١٣١١ هـ .
- ٣ - التونسي ، خير الدين  
أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك ، مطبعة الدولة ، بحاضرة تونس المحمية ، ١٢٨٤ هـ .
- ٤ - زكي ، أحمد  
السفر إلى المؤمر ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، ط ١ ، ١٣١١ هـ .
- ٥ - المؤلف نفسه  
الذنيا في باريس ، ١٩٠٠ م .
- ٦ - سابا يارد ، نازك  
الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، مؤسسة نوفل ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٧ - الشدياق ، أحمد فارس  
الواسطة إلى معرفة أحوال مالطة ، مؤسسة ناصر للثقافة ، دار الوحدة ، ط ١٢ ، ١٩٧٨ .
- ٨ - المؤلف نفسه  
كشف المخبا عن فنون أوروبا ، مطبعة الدولة التونسية ، ١٢٨٣ هـ .
- ٩ - المؤلف نفسه  
الساق على الساق في ما هو الفاريق ، قدم له وعلق عليه: الشيخ نسيب وهيبه الخازن ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت) .
- ١٠ - الطهطاوي ، رفاعة  
تخليص الإبريز في تلخيص باريز ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، طبة ١ ، ١٩٥٨ .

١١ - الفاسي ، أبو جمال محمد الظاهر

الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية ( ١٢٨٦هـ / ١٨٦٠م ) تحقيق : الأستاذ محمد الفاسي ،  
رئيس جامعة محمد الخامس ، مطبعة جامعة محمد الخامس ، فاس ، ١٩٦٧م .

١٢ - فهميم ، حسين

أدب الرحلات ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩م .

١٣ - أبو لغد ، إبراهيم

انفتاح العرب على الغرب ، مراجعة: محمود السمرة ، مجلة العربي ، العدد ٦٩ آب ١٩٦٤ (ص  
١٣٢-١٣٨) .

١٤ - الورداني ، علي بن سالم الورداني التونسي

الرحلة الأندلسية ( ١٩ سبتمبر ١٨٨٧م ) تحقيق ودراسة : عبد الحكيم القفصي ، مجلة أوراق ،  
عدد ٥ - ٦ مدريد ( ١٩٨٢ - ١٩٨٣ ) ، ص ١١٥ - ١٣٠ .